مجلة الرائد

العدد : ٢٠٤ الموافق في رجب ١٤١٩ هجري ١٢ / ١٩٩٨ ميلادي

عنوان المقال : الظلم !... الظلم ! -١-	بقلم : الأستاذ عصام العطار

ما أكثرَ الظلمَ هذه الأيّام ، وفي غير هذه الأيّام !

الدُّوَلُ تظلمُ الدُّوَل ، والحكوماتُ تظلم الشعوب ، والأفراد يظلمون الأفراد...

الأغنياء يظلمون الفقراء ، والأقوياء يظلمون الضعفاء ، والجهلاء يظلمون العلماء...

الإلحاد يظلم الإيمان ، والعدوان يظلم الإحسان ، والفساد يظلم الصلاح ، والباطل يظلم الحقّ ، والكذب يظلم الصدق...

والإنسان يظلم نفسَه في أمور آخرته ودنياه كما يظلم سواه !

والظلم في الدنيا قديم قديم

وهكذا كانَ أهلُ الأرض مُذْ وُجِدوا فلا يَظُنَّ جَهولٌ أنّهُمْ فَسَدُوا

كما يقول أبو العلاء المعريّ

والظلمُ من شِيَمِ النُّفُوس فإنْ تَجِدْ ذا عِفّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

كما يقول المتنبي

و « الظلمُ كَمِينٌ في النفس ، القوةُ تُظْهِرُهُ ، والضّعْفُ يُخْفيه »

كما رُوِيَ عن رسول الله ﷺ ، ولا أتذكَّر في هذه اللحظة - وأنا أكتب - درجة هذا الحديث من الصحّة أو الحُسْن أو الضعف

والقولُ الفَصْلُ في ذلك هو قولُ خالق الإنسان، فما بَعْدَ قولهِ عزّ وجلَّ قوْل :

{ وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصوها إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كَفّار }

ظلومٌ كَفّار

يظلم غيره ، ويظلم نفسَه إن لم يجد من يظلم

رُوِيَ عن « الحُطَيْئة » الشاعر الهَجّاء ، أنّ نفسَه ثارت به للشتيمة والهجاء ، فأخذ يمشي وهو يُردّد :

أبَتْ شَفَتَايَ اليومَ إلاّ تَكَلُّماً بشَرٍّ فما أدْري لِمَنْ أنا قائِلُهْ

وحَامَ وحامَ... فلمّا لم يجد أمامَه من يَسُبُّه ويشتمه ، ويُطْفِئُ به ثورتَه المتّقِدة للظلم والشرّ... سَبّ نفسَه وشتمها ، فقال :

أرى لِيَ وَجْهاً شَوَّهَ اللهُ خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وجـهٍ وقُبِّحَ حـامِلُهْ

وودّع الحطيئةُ الحياة - كما زعموا - وهو يُرَدّد :

لا أَحَدٌ ألأم مِنْ حُطَيَّهْ هَجا بَنيهِ وهَجا الـمُرَيَّهْ

ونحن نُذكّر أنّه هجا أمّه أيضاً وزجرهَا ودعا عليها... فكان ممّا قال :

تَنَحَّــيْ فاجْلِــسي مِنّــي بَعيــداً أراحَ اللهُ منـــكِ العالَمينـــا
أغِرْبــالاً[1] إذا اسْـتُودِعْتِ سِـرّاً وكانونــاً[2] علـى المُتَحَـدِّثينا
حياتُـكِ مـا عَلِمْـتُ حيـاةُ سُـوءٍ وموتُـكِ قَـدْ يَـسُرُّ الـصالحينا

وإذا تركنا الحطيئة وأمثاله من الشوادّ ، فإنّ من سَادات العرب وفرسانِها في جاهليّتها قبل الإسلام ، من كان يتفاخر بالبغْي والظلم والعدوان ، كعمرو بن كُلثوم الذي يقول عن نفسه وقومه :

ونَـشْرَبُ إنْ وَرَدْنـا المـاءَ صَفْواً ويَـشْرَبُ غيرُنـا كَـدِراً وَطِينـا
بُغْــاةً ظــالمينَ ومــا ظَلِمْنــا ولكنّــا ســنَبْدَأُ ظالمينــا
إذا بلــغَ الفِطــامَ لَنــا صَــبيٌّ تَخِـرُّ لَـهُ الجبَـابرُ سَـاجدينا

واعتَقَدَ كثيرٌ من الناس على امتداد العصور أنّ الإنسان في حياته الدنيا بين خِيارَيْن ليس لهما ثالث : أنْ يَظلِم أو أنْ يُظْلَم

يقول الشاعرُ العربيُّ الجاهليُّ المُعَمَّرُ الحكيم : زهيرُ بنُ أبي سُلْمى في مُعَلّقته الخالدة :

وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

وهو يتوافقُ في هذا - أو بالأحْرَى يتوافقُ معه في هذا - شاعر غربيّ عالم مفكّر حكيم ، هو شاعر ألمانيا وأديبُها الكبير جوته - **Johann Wolfgang von Goethe** المتوفّى في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي سنة ١٨٣٢ ، في أبيات له صريحة بعنوان : **Ein Andres** . ترجمتُها التقريبية ، فأنا لست - كما تعلمون - من فقهاء اللغة الألمانية ولا العربية :

إذهبْ ! أطِعْ إشارتي ،

إستفِدْ من أيّام شبابك ،

تَعَلَّمْ أن تكونَ زكيَّاً في الوقت المناسب !

في ميزانِ الحظّ [والحياةِ] الكبير

نادراً ما يستقيم اللسانُ وتعتدلُ الكفَّتان :

يجب عليك أن ترتفع أو تهبط

يجب أن تُهَيْمِن وتربَح

أو تخضعَ وتخسر ،

أنْ تُعانِيَ [وتتعذَّبَ] أو أن تنتصِر

أنْ تكونَ المِطْرَقةَ أو أنْ تكونَ السَّنَدان »

EIN ANDRES

Geh! gehorche meinen Winken,

Nutze deine jungen Tage,

Lerne zeitlig klüger sein!

er Waageك Auf des Glückes gro

Steht die Zunge selten ein:

t steigen oder sinken,ك Du mu

t herrschen und gewinnenك Du mu

Oder dienen und verlieren,

Leiden oder triumphieren,

Ambo ك oder Hammer sein.«

يا لها من صورة محزنة هذه الصورة التي رسمها جوته للواقع الإنساني !

ويا له من استسلامٍ يائس لهذا الواقع !

هل كان « جوته » يؤمن حقيقة - عند ما نظم أبياته - بما قاله لنا فيها ، وبما قدّمه من نُصْح ؛ أم أنّه قال ما قال نقداً للواقع ، وسخرية ، ليدفعنا بهذا الأسلوب ، دفعاً غير مباشر ، للنقد والسخرية والرفض ؟!

لستُ أدري !!

ولكن ما هو موقف الإسلام - أو الأحرى بنا أن نقول : ما هو حكمه - في هذا الأمر القديم القديم ، الحديث الحديث ، الذي يطالعنا في داخل أنفسنا ، وفي عالمنا وعصرنا ، بألف صورة وصورة ، وقناع وقناع... في كلّ مكان ومجال ؟

هذا ما سأحاول التذكير ببعضه ، فالتذكير به - أو ببعضه - من أكثر ما نحتاجه ، وما ينفعنا هذه الأيام

❋ ❋ ❋

حارب الإسلام الظلم بمختلف درجاته وأشكاله وألوانه ومواضعه ومجالاته

حاربه في النفوس وفي واقع الحياة وحيثما كان

حاربه وهو يَنْزل بالأصدقاء ، وحاربه وهو يَنْزل بالأعداء

حاربه بالعمل الإيجابي : بترسيخ الإيمان ، وقيم الحقّ والعدالة والإحسان ، وتربيةِ الأفراد والمجتمعات ؛ وبالقوةِ كلّما وَجَبَ استعمالُ القوّة لحماية الحقوق والكرامَات والحُرُمات :

« **إنَّ الناسَ إذا رَأوا الظالمَ فلم يأخُذُوا على يَدِهِ أوشكَ أن يَعُمَّهُمُ اللهُ بعقابٍ من عنده** »

صدق رسولُ الله ﷺ

❋ ❋ ❋

وما دمتُ قد دخلت في هذا الموضوع ، وبدأت أتحدث عن موقف الإسلام من الظلم والظالمين ، فالأحاول أن أنظّم الحديث بعض التنظيم ، وأقسِّمه بعض التقسيم ، حتى لا يَضيع معي القراء ، ولا تختلِط عندهم الأمور ؛ ولأحاولْ أيضاً أن أختصر ما وسعني الاختصار ، حتى لا أجور على صفحات غيري من كُتّاب الرائد وأنا أندّد بالجوْر والظلم !!

تحريم الظلم

اسمحوا لي الآن أن أسوق أمامكم بعض النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فالحديث هنا عن حكم الإسلام ولا بدّ فيه من الرجوع إلى الكتاب والسنّة أولاً . وسترون - أيها الإخوة - أنّ الإسلام قد حرّم الظلم على أيٍّ كان تحريماً قاطعاً ، ونهى عنه نهياً جازماً ، وذمّه ، وخوّف منه ، وحذّر من يقعون فيه ، وبين سوء عاقبته في الدنيا والآخرة ، وأمر باتقائه ، وألا يغترّ الظالم إذا أمهله الله عز وجل ، فالله ليس بغافل عنه ، وأن يتقي دعوة المظلوم - ولو كان كافراً - فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ، وأن يَعْلَم

الظالمون والذين يرتضون الظلم : أنّ الأمة التي لا يأخذ ضعيفُها حقه من قويها... لا يُطهِّرها الله ، ولا يبارك عليها ، ولا يُوَفِّقُها لعظمةٍ حقيقيّةٍ ومجد[٣]

• عن أبي ذرّ الغِفاري ﷺ ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ أنّه قال :

« **يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرّماً ، فلا تَظالَموا** » [رواه مسلم]

❋ ❋ ❋

• عن جابر ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال :

« **اتّقوا الظُّلْمَ ؛ فإنّ الظلمَ ظُلُماتٌ يومَ القِيامة ، واتّقُوا الشُّحَّ ؛ فإنّ الشُّحَّ أهلكَ مَنْ كان قبلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ على أنْ سَفكُوا دِماءَهم ، واستحلُّوا مَحارمَهم** » [رواه مسلم]

❋ ❋ ❋

• عن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

« **إنَّ اللهَ لَيُملي للظّالم ، فإذا أخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ ، ثمّ قرأ :{ وكَذلِكَ أخْذُ ربِّك إذا أخَذَ القُرى وهي ظالِمةٌ إنَّ أخْذَهُ أليمٌ شَديد** }[هود:١٠٢] » [متفق عليه]

❋ ❋ ❋

• { **ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عمَّا يَعْمَلُ الظالمون إنّما يُؤَخِّرُهُمْ ليومٍ تَشْخَصُ فيهِ الأبْصار** } [إبراهيم:٤٢]

❋ ❋ ❋

• { ... **لَهُمْ في الدّنيا خِزيٌ ولَهُمْ في الآخرةِ عذابٌ عَظيم** } [البقرة:١١٤]

❋ ❋ ❋

• عن مُعَاذ ﷺ قال : بَعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ فقال : « ... **واتَّق دَعْوةَ المظلوم ، فإنّهُ ليسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللهِ حِجاب** » [متفق عليه]

❋ ❋ ❋

• وقال ﷺ :

« **اتّقوا دعوةَ المظلوم ، وإنْ كان كافِراً ، فإنّهُ ليسَ دُونَها حِجاب** » [قال الشيخ ناصر في صحيح الجامع الصغير وزيادته : حديث حسن]

❋ ❋ ❋

• وقال ﷺ :

« **كَيْفَ يُقدِّسُ اللهُ أُمّةً لا يَأْخُذُ ضَعيفُها حَقَّهُ من قويِّها ، وهو غير مُتَعْتَع** ؟ » [قال الشيخ ناصر في صحيح الجامع الصغير وزيادته : حديث صحيح]

❋ ❋ ❋

• وقال ﷺ :

« **كيفَ يُقدِّسُ اللهُ أُمّةً لا يُؤْخَذُ من شديدهم لِضَعيفهم** ؟ » [قال الشيخ ناصر في صحيح الجامع الصغير وزيادته : حديث صحيح]

وإلى اللقاء في العدد القادم - إن شاء الله - حيث نتابع الحديث

الحواشي :

(١) الغربال : النمّام

(٢) الكانون : الثقيل الوخْم من الناس

(٣) ليت بعض حكامنا وأصحاب القوة والسلطان فينا... الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وهم غارقون في الهزيمة والعجز والهوان ، يتفكرون في هذا الأمر